من امتداد اللهجات العربية القديمة
في بعض اللهجات المعاصرة

الدكتور رمضان عبد التواب
أستاذ العلوم اللغوية ووكيل كلية الآداب
جامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

في ظن كثير من الناس أن اللهجات الحية المعاصرة ، في البلاد العربية المختلفة ، ليست إلا انحطاطا من العربية الفصحى . وليس هذا الظن إلا وليداً لاعتقادهم بأن العربية الفصحى كانت هي اللغة الوحيدة السائدة في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وأنها فسدت باختلاطها باللغات المجاورة عقب الفتوحات الإسلامية .

غير أن ذلك الظن ليس إلا سراباً خدّاعاً ، فقد رُوي لنا الكثير والكثير جداً عن تعدّد اللهجات العربية القديمة ، بتعدد القبائل المختلفة . وهذا يتفق مع ما ينادي به بعض المحدثين من علماء اللغة من أنه يستحيل على أية مجموعة بشرية ، تشغل مساحة شاسعة من الأرض ، أن تحتفظ في لهجات الخطاب بلغة موحّدة .

نعم .. فقد كانت الجزيرة العربية قبل الإسلام تموج بشتى اللهجات المتباينة ، التي يخالف بعضها بعضاً في شيء من الصوت ، أو البِنية ، أو الدلالة ، أو التركيب .. ولكن اللغويين العرب ، لم يصفوا لنا تلك اللهجات العربية القديمة وصفاً دقيقاً كاملاً في كثير من الأحيان ، وذلك لانشغالهم في المقام الأول بالعربية الفصحى ، تلك اللغة الأدبية المشتركة بين مجموع القبائل العربية والتي كانوا يستخدمونها في مواقف الجدّ من القول ، وينظمون بها أشعارهم ،

ويصبّون فيها حكَمهم وأمثالهم ، ثم شرفها الله تعالى ، فأنزل كتابه الكريم ، بأعلى ما تصبو إليه هذه اللغة من فصاحة وبلاغة .

ومنذ ذلك الحين ، ارتبطت هذه اللغة بالقرآن الكريم ، واجتهد النحاة واللغويون في دراستها ، وتحديد معالمها، من نواحي الأصوات والصيغ والأبنية والدلالة ، وتركيب الجملة ، ووظيفة الكلمة في داخل هذه الجملة .

ومع أن الهدف الأساسيَّ عند هؤلاء اللغويين كان هو محاولة رسم معالم اللغة الأدبية ، لغة القرآن الكريم والشعر والخطابة ، وغير ذلك من الفنون الأدبية ، وهي تلك اللغة التي اصطلحنا على تسميتها بالفصحى فإننا نراهم يروون لنا في بعض الأحيان مقتطفاتٍ مبتورةً عن تلك اللهجات العربية القديمة، معزوّةً إلى أصحابها حيناً ، وغيرَ معزوّة حيناً آخر ، ومختلطةً بالفصحى كذلك في بعض الأحيان .

وتمتلىء المصادر العربية القديمة بالحديث عن كثير من خصائص هذه اللهجات القديمة ، كفحفحة هُذَيْل ، وعنعنة تَميم ، وتَلْتَلة بَهْراء ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هَوازن ، وقُطْعة طَيّئ ، وعجعجة قُضاعة ، وغير ذلك من الظواهر اللهجية ، الملقّبة بألقاب مختلفة عند اللغويين العرب ، كما حدثونا عن شيء كثير من الظواهر التي لم يلقبوها لهذه القبيلة أو تلك .

وإن من يتأمل هذا الذي رُوي لنا عن اللهجات القديمة في بطون المصادر العربية ، يخرج بنتيجة صريحة واضحة ، وهي أن ما نراه الآن في بعض لهجاتنا الحية المعاصرة ليس في بعض ظواهره إلا امتداداً لهذا الذي رُوي لنا في القديم . وفيما يلي نضرب بعض الأمثلة على ذلك :

★ ★ ★

نحن نعرف أن العربية الفصحى تفتح حرف المضارعة في الثلاثي ، في نحو : يكتب ، ويفتح ، ويضرب ، ويقول ، ويبيع ، ويرمي ، ويروي ،

وغير ذلك ، على حين نرى كثيراً من اللهجات الحية المعاصرة في البلاد العربية المختلفة ، تكسر حرف المضارعة في هذه الأمثلة وأشباهها . وهذا عينه هو ما رواه لنا أكثر القدماء (١) عن قبيلة « بهراء » ، وتعرف هذه الظاهرة عند هؤلاء القدماء « بتلتلة بهراء » . وعزاها صاحب لسان العرب إلى كثير من القبائل العربية ، فقال : « وتِعْلَم ، بالكسر : لغة قيس ، وتميم ، وأسد ، وربيعة، وعامّة العرب . وأما أهلُ الحِجاز ، وقوم من أعجاز هوازن ، وأزْد السّراة ، وبعض هُذَيْل ، فيقولون : تَعْلَم ، والقرآن عليها . وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب لم يقل إلاّ تِعلم بالكسر » (٢) . ويقول الفرّاء : إن « النون في (نستعين) مفتوحة في لغة قريش ، وأسدٌ وغيرُهم يكسرها»(٣).

وقد جاءت هذه الظاهرة في رجز لحكيم بن مُعَيَّةَ الرَّبَعي ، وهو :

لو قلت ما في قومها لم تِيثَم   يفضُلُها في حَسَبٍ ومِيسَمٍ (٤)

أي : « لم تَأْثَمْ » ، التي صارت بعد كسر حرف المضارعة : « تِئْثَم»، وخُفِّفت الهمزة فصارت : « تِيثَم » كما في البيت .

وقد روى ابن جنّي بيتاً عن أعرابيّ من بني عُقيل ، كَسَر فيه الهمزة الهمزة في الفعل : (أخاف) ، فقال : « وأنشدني عُقَيليّ فصيح لنفسه :

فقومي هُمْ تميمٌ يا مُمارِي   وجوثة ما إِخافَ لهم كِثارا

فكسر الهمزة من : إخاف (٥) .

(١) مجالس ثعلب (٨١/١) ، وعنه في الخصائص ١١/٢ ، وسر صناعة الإعراب ٢٣٥/١ ، ودرة الغواص ١١٤ ، وخزانة الأدب ٥٩٦/٤ .

(٢) لسان العرب (وقى) ٢٨٣/٢٠ .

(٣) الصاحبي لابن فارس (نشرة الشويمي) ٤٨ ، وفيه : « في لغة قيس » ، وهو تحريف . والصواب مافي نشرة السيد صقر ٢٨ ، والمزهر ٢٥٥/١ ، عن ابن فارس . وقد وقع « رابين » (Ancient, p. 61) في وهم آخر ، حين عطف « أسداً » على « قريش » في هذا النص!

(٤) خزانة الأدب ٣١١/٢ ، وتهذيب الألفاظ ٢٠٧ .

(٥) المنصف ٣٢٢/١ .

كما روى ابن الأنباريّ بيتاً للمرّار الفَقْعَسي ، كَسَرَ فيه التاء من : « تَعلم » في قوله :

قد تِعْلَم الخيلُ أياماً تُطاعِنُها من أي شِنْشِنةٍ أنت أبْنَ مَنْظُورِ

وقال بعده : « قال أبو بكر : قال أبي : أنشدَنيه أبو جعفر : قد تِعْلَم ، بكسر التاء ، وقال : هي لغة بني أسد ؛ يقولون : تِعلم ، وإعلم ، ونِعلم . ومثله كثير » (٦) .

وقد قرئ بهذه اللغة ، في بعض القراءات الشاذة ؛ فقد رُوي عن يحيى ابن وثّاب ، والأعمش ، وطلحة بن مصرّف ، وحمزة بن حبيب الزيّات ، أنهم قرؤوا قوله تعالى : « ولا تِرْكَنُوا إلى الّذين ظَلَموا فتِمَسَّكُمُ النّارُ » (هود ١١ – ١١٣) بكسر التاء في الفعلين . وقال ابن جنّي في التعليق على هذه القراءة : « هذه لغة تميم ، أن تكسِرَ أوّلَ مضارعِ ما ثاني ماضيه مكسور ، نحو : علِمت تِعْلَم ، وأنا إِعلم ، وهي تِعلم ، ونحن نِركب . وتقلّ في اليـاء : يِعلم ، ويِركب ؛ استـثقالاً للكسرة في اليـاء ، وكذلك ما في أول ماضيه همزة وصل مكسورة ، نحو : تِنْطلق ، ويوم تِسْوَدُّ وجوهٌ وتِبْيَضّ وجوه » (٧) .

وهذه الظاهرة – ظاهرة كسر حرف المضارعة – ساميّة قديمة ، توجد في العِبرية (٨) والسّريانية (٩) والحبشية (١٠) . والفتح في أحرف المضارعة حادث في رأي ، في العربية القديمة ؛ بدليل عدم وجوده في اللغات الساميّة الأخرى ، وبدليل ما بقي من الكسر في كثير من اللهجات العربية القديمة .

(٦) المفضليات بشرح ابن الأنباري ٢٠ .
(٧) المحتسب لابن جني ١/٣٣٠ .
(٨) أنظر : Gesenius, Hebrüische Grammatik, S. 133
(٩) أنظر : Brackelmann, Syrische Grammatik, S. 85
(١٠) أنظر : Praetorius, Aethiopische Grammatik, S. 48

وهناك دليل ثالث على أصالة الكسر في حروف المضارعة ، في اللغات الساميّة ، وهو استمراره حتى الآن في اللهجات العربية الحديثة كلها ؛ إذ نقول مثلاً : « مين يقرا ومين يِسْمَع ؟ » ، بكسر حرف المضارعة ، في لغة التخاطب اليومية . ولم يبق فتح حرف المضارعة في اللهجات الحديثة — فيما أعلم — إلا في لهجة نجد ، إذا كانت فاء المضارع ساكنة ، مثل : يَرْمي ويَلْعب ، ويَرْكض . ولا يكسر حرف المضارعة في هذه اللهجة ، إلا إذا كان ما بعده متحركاً ، مثل : يِسُوق ، ويِنُوم (مضارع نام) ، ويِسابق ، ويِلاكم ، ويِهاوش ، وغير ذلك .

وقد بقيت بعض آثار هذا القديم في العربية الفصحى نفسها ، في بعض الأمثلة ؛ إذ يُكسر في الفصحى حرفُ المضارعة ، في : « إخال » بمعنى : « ظن » في كثير من النصوص التي وصلت إلينا . ومن شواهده قولُ أبي ذُؤيْب :

فغَبَرْتُ بعدهُمُ بعيشٍ ناصبٍ وإخال أنّي لاحقٌ مُستتبَعُ (١١)

وقولُ العباس بن مرداس :

قد كان قومك يحسبونك سيِّداً وإخالُ أنّك سيّدٌ معيون (١٢)

وقولُ زهير بن أبي سُلْمَى :

وما أدري وسوف إخال أدري أقومٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ ؟

وقولُ كعب بن زهير :

أرجو وآمُلُ أن تدنو مودّتُها وما إخالُ لَدَيْنَا منك تنويلُ (١٤)

(١١) ديوان الهذليين ٨/١ ، والمنصف لابن جني ٣٢٢/١ .
(١٢) ديوانه ق ٢/٣٨ ص ١٠٨ ، ولسان العرب (عين) ١٧ / ١٨٦ .
(١٣) ديوانه ص ٧٣ ولسان العرب (قوم) ١٥ / ٤٠٨ .
(١٤) ديوانه ص ٩ .

وهذا ما أسميه أنا: « الركام اللغوي للظواهر المندثرة في اللغة » (١٥)، ومعناه أن الظاهرة اللغوية ، قبل أن تموت ، قد تبقى منها أمثلة ، تعين على معرفة الأصل .

★ ★ ★

ومن الأمثلة التي تؤيد مانذهب إليه ، من أن اللهجات المعاصرة ليست إلا امتداداً لشيء من اللهجات العربية القديمة أيضاً ، مايشيع في بعض اللهجات العربية الحديثة ، في مصر وغيرها ، من استعمال اسم المفعول من الفعل الأجوف اليائي على التمام ، أي على وزن مفعول ، دون إعلال يطرأ عليه ؛ فيقول الناس في مصر مثلا : فلان مديون ، أي : عليه دين ، ومريوح ، أي ضعيف لايقدر على حمل الأثقال ، ومطيور ، أي : متسرّع في عمله ، ومخيول ، أي : منشغل بما في خياله من أوهام . كما يقال في بعض البلاد العربية عن الثوب إنه مخيوط ، وعن فلان من الناس : إنه مهيوب ، وعن الشيء : إنه معيوب ومبيوع ، وعن الحَبِّ إنه مكيول .. وغير ذلك .

والعربية الفصحى تُعِلُّ هذه الأسماء وما يشبهها بما يسمى الإعلال بالنقل ؛ فتقول مثلاً : مَدين ومَخيط ، ومَعيب ، ومَكيل ، ومَبيع.. وغير ذلك .

غير أن هذا الذي قد شاع في اللهجات العامية المعاصرة ، ليس إلا لهجةً لقبيلة تميم (١٦) من القبائل العربية القديمة . قال عبدالقادر البغداديّ في التعليق على قول العباس بن مرداس السُّلَمي :

قد كان قومك يحسبونك سيداً   وإخال أنّك سيّد مغيونُ :

« قوله : مغيون ، جاء على لغة تميم . ولغةُ غيرهم : مَغِين ... ومغيون بالغين

(١٥) راجع مقالتنا : « الركام اللغوي للظواهر المندثرة في اللغة » بالمجلة العربية ٢/١ ص ٥٥ – ٦٠ ، وكتابنا : « لحن العامة والتطور اللغوي » ٣٧٦ .

(١٦) انظر : شرح الشافية ١٤٩/٣ .

المعجمة – اسمُ مفعول ، من قولهم : غِينَ على قلبه ، أي غُطِّي عليه . وفي الحديث : وإنّه لَيُغَانُ على قلبي . ولكن الناس ينشدونه بالباء ، وهو تصحيف . وقد رُوي بالعين غير المعجمة ، أي : مصابٌ بالعين . والأول هو الوجه . وكلاهما مما جاء فيه التصحيح . وإن كان الاعتلال فيه أكثر ، لقولهم : طعام مزيوت ، وبُرٌّ مكيول ، وثوب مخيوط . والقياس : مَغين ، ومَزِيت ، ومَكِيل ، ومَخِيط » (١٧) .

وقد اشار سيبويه إلى هذه اللغة ، وإن لم ينسبها إلى تميم ، فقال : « وبعض العرب يُخْرِجُه على الأصل : فيقول : مخيوط ومبيوع (١٨) . وكثير من هذه الكلمات السابقة ، تذكر في بعض المعاجم العربية ، بالتصحيح والإعلال ، جنباً إلى جنب ، دون نسبة إلى قبيلة معينة (١٩) .

★ ★ ★

ومن الأمثلة على موضوعنا كذلك : ماشاع على ألسنة الناس من قولهم في لهجات الخطاب : « ظلموني الناس » و « لاموني العواذل » و « زارونا الجيران » و « تنوُّ صاحبي لحدّ مارجْعُوا العيال من برَّه » ، أي بإلحاق الفعل علامة جمع وهو متقدم على الفاعل المجموع .

ومن المعروف في العربية الفصحى أن الفعل يجب إفراده دائماً ، حتى وإن كان فاعله مثنى أو مجموعاً ، أي أنه لاتتصل به علامة تثنية ولا علامة جمع ، للدلالة على تثنية الفاعل أو جمعه ، فيقال مثلاً : « قام الرجل » و « قام الرجلان » و « قام الرجال » . بإفراد الفعل : « قام » دائماً ؛ إذْ لايقال في الفصحى مثلا : « قاما الرجلان » ، ولا « قاموا الرجال » .

(١٧) شرح شواهد الشافية ٤/ ٣٨٨ – ٣٨٩ .
(١٨) كتاب سيبويه ٢/٣٦٣ .
(١٩) انظر مثلا : الصحاح (عيب) ١/١٩٠ (خيط) ٣/١١٢٦ (بيع) ٣/١١٨٩ (خيل) ٤/١٦٩١ (كيل) ٥/١٨١٤ (دين) ٥/٢١١٧ (عين) ٦/٢١٧١ .

وعلى هذا النحو ، جاءت جمهرة الجمل الفعلية في القرآن الكريم ؛ يقول الله تعالى مثلاً : « وكأيِّنْ من نبيّ قاتل معه رِبِّيُّون كثير» (آل عمران ٣ — ١٤٦) ولم يقل : قاتلوا معه . كما قال جلّ شأنه : « إذ هَمّت طائفتان منكم أن تفشلا » (آل عمران ٣ — ١٢٢) ، ولم يقل : همّتا طائفتان .

تلك هي القاعدة المطردة في العربية الفصحى ، شعراً ونثراً . أما قبيلة طيء القديمة ، فقد رُوي لنا عنها (٢٠) أنها كانت تلحق الفعل علامة تثنية للفاعل المثنى ، وعلامة جمع للفاعل المجموع . وقد حُكيت لنا هذه اللغة كذلك ، عن قبيلة « بلحارث بن كعب » (٢١) ، وقبيلة « أَزْد شَنُوءَة » (٢٢) ، وهما من القبائل اليمنية ، التي تمتُّ لأصل قبيلة طيء بصلة (٢٣) .

وتُعرف هذه الظاهرة عند النحاة العرب بلغة : « أكلوني البراغيث » . وقد عُرفت عندهم بهذا الاسم ؛ لأن سيبويه هو أولُ من مثّل لها في كتابه، واختار هذا المثال فقال: «في قول من قال: أكلوني البراغيث » (٢٤) ، كما قال في موضع آخر : « ومن قال : أكلوني البراغيث ، قلت على حدّ قوله : مررت برجل أعورين أبواه » (٢٥) . وإن كان قد ضرب لهذه الظاهرة أمثلة أخرى في كتابه ؛ فقال : « واعلم أن من العرب من يقول : ضربوني قومُك ، وضرباني أخواك ، فشبهوا هذه بالتاء ، التي يظهرونها في : قالت

(٢٠) انظر : الجنى الداني للمرادي ١٧١ ، وشرح درة الغواص للخفاجي ١٥٢ ، وبصائر ذوي التمييز ١٤٩/٥ ، وشرح التصريح ٢٧٥/١ ؛ ١١٠/٢ ، وهمع الهوامع ١٦٠/١ ، والقاموس المحيط (الواو) ٤١٣/٤ ، والنهاية لابن الأثير ٢٩٧/٣ ، والفائق للزمخشري ٧٤/٣ .

(٢١) أنظر : بصائر ذوي التمييز ١٤٩/٥ ، والقاموس المحيط (الواو) ٤ / ٤١٣ ، ومغني اللبيب ٣٦٥/٢ .

(٢٢) أنظر : بصائر ذوي التمييز ١٤٩/٥ ، وشرح التصريح ٢٧٦/١ ، والقاموس المحيط (الواو) ٤١٣/٤ ، ومغني اللبيب ٣٦٥/٢ .

(٢٣) أنظر : الاشتقاق لابن دريد ٣٦١ . (٢٤) كتاب سيبويه ٥/١ .

(٢٥) كتاب سيبويه ٢٣٧/١ .

فلانة ، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة ، كما جعلوا للمؤنث علامة وهي قليلة » (٢٦) .

وتدل مقارنة اللغات السامية ، أخوات العربية ، وهي : العبرية والآرامية والحبشية والأكادية ، على أن الأصل في تلك اللغات أن يَلْحق الفعلَ علامةُ التثنية والجمع ، للفاعل المثنى والمجموع ، كما تلحقه علامة التأنيث ، عندما يكون الفاعل مؤنثاً ، سواء بسواء ففي اللغة العبرية مثلاً :

wayyamotu gam snehem mahlon w-kilyon

وترجمته الحرفية : « فماتا كلاهما محلون وكليون » (٢٧) . ومثل ذلك أيضاً فيها : Lo yakomu rsa im bammispat

وترجمته الحرفية : « لايقومون الأشرار بالعدل » (٢٨) .

ومثل ذلك في الآرامية ، في نحو : dalma ngurun hrane battak

وترجمته الحرفية : « لئلا يزنوا الآخرون بامرأتك » (٢٩) .

وكذلك الحال في الحبشية ، في نحو : wahoru ahzab ، وترجمته الحرفية : « فعادوا الشعوب »(٣٠). ومثل ذلك أيضاً : wabazhu welodomu

وترجمته الحرفية : « وكثروا أطفالهم » (٣١) .

وقد تخلصت العربية الفصحى من هذه الظاهرة رويداً رويداً ، أخذاً بمبدأ الاستغناء عن بعض العلامات عند تكدُّسها ، للدلالة على الظاهرة الواحدة ؛ فان

---

(٢٦) كتاب سيبويه ٢٣٦/١ .   (٢٧) سفر روث ٥/١ .

(٢٨) سفر المزامير ٥/١ ، وانظر أمثلة أخرى في سفر التكوين ١/٢ ؛ ٢/٦ ؛ ٢/٨ ، وسفر الأمثال ١٠/٥ ، وغير ذلك .

(٢٩) أحيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم ١/٣٣ ، وانظر أمثلة أخرى في إنجيل متى ١/٥ ، وإنجيل لوقا ٢٣/١ ، وغير ذلك .

(٣٠) انظر : F. Praetorius, Aethiopische Grammatik, Chrestomathia 41

(٣١) انظر : F. Praetorius, Aethiopische Grammatik, Chrestomathia 42

الذي كان يدلّ على التثنية هنا هو علامة التثنية في الفعل ، ووضع الفاعل في صيغة المثنى ؛ وكذلك كان يدل على الجمع علامته المتصلة بالفعل . ووضع الفاعل في صيغة الجمع .

وإذا استغنت اللغة عن العلامات المتصلة بالفعل ، لم تخسر الدلالة على التثنية والجمع ، لوجود مايدل عليهما في صيغة الفاعل نفسها ؛ ولذلك قال سيبويه : « وإنما قالت العرب : قال قومك . وقال أبواك ؛ لأنهم اكتفوا بما أظهروا ، عن أن يقولوا : قالا أبواك ، وقالوا قومك ، فحذفوا ذلك اكتفاء بما أظهروا » (٣٢) .

وإذا كانت العربية الفصحى ، قد تخلّصت رويداً رويداً من هذه الظاهرة ، فإن بقاياها ظلّت حيّة ، عند بعض القبائل العربية القديمة ، كقبيلة « طيّئ » و « بلحارث بن كعب » و « أزد شنوءة » كما ذكرنا من قبل .

وكذلك بقيت بعض آثارها في العربية الفصحى ، في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، واحتفظ بها الكثير من أبيات الشعر العربي القديم .

أما القرآن الكريم ، فقد ورد فيه قوله تعالى : « ثم عَمُوا وصَمُوا كثير منهم » (سورة المائدة ٥–٧١) ، وقولهُ عز وجل : « وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا » (سورة الأنبياء ٢١–٣) .

وقد أكثر النحويون والمفسرون وعلماء اللغة العرب القولَ في تخريج هاتين الآيتين الكريمتين ؛ فقد قال الإمام القُرْطُبيّ في تفسير الآية الأولى مثلاً « ثم عَمُوا وصَمُوا كثيرٌ منهم » أي : عَمِيَ كثيرٌ منهم وصَمَّ ، بعد تبيُّن الحقّ بمحمّد عليه الصلاة والسلام ؛ فارتفع « كثير » على البدل من الواو ، كما تقول : رأيتُ قومَكَ ثلثيهم . وإن شئت كان على إضمار مبتدأ . أي : العُمْيُ والصُّمُّ كثير منهم . ويجوز أن يكون على لغةِ من قال : أكلوني البراغيث »(٣٣)

---

(٣٢) كتاب سيبويه ٢٣٤/١ . (٣٣) تفسير القرطبي ٦/ ٢٤٨ .

كما قال في الآية الثانية : « وأَسرُّوا النَّجوَى الذين ظَلَموا » أي : تناجوا فيما بينهم بالتكذيب ، ثم بيّن مَنْ هم ، فقال : الذين ظلموا ، أي : الذين أشركوا ؛ فالذين ظلموا بدل من الواو في « أَسَرُّوا » ، وهو عائد على الناس المتقدم ذكرهم . قال المبرّد : وهو كقولك : إن الذين في الدار انطلقوا بنو عبدالله ، فبنو بدل من الواو في انطلقوا . وقيل : هو رفع على الذمّ ، أي : هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول ، أي : يقول الذين ظلموا . وقول رابع : أن يكون منصوباً بمعنى : أعني الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكون خفضاً ، بمعنى : اقترب للناس الذين ظلموا حسابهم ، فهذه خمسة أقوال وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكلوني البراغيث ، وهو حَسَن . وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، ومجازه : والذين ظلموا أَسَرُّوا النجوى» (٣٤).

تلك هي آراء المفسرين والنحاة واللغويين العرب في هذه الظاهرة ، وهم مقلّبون لكل الأوجه الممكنة في العربية من التخريج والتأويل .

ومما جاء في الحديث الشريف ، قوله صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنّهار » (٣٥) بدلاً من : تتعاقب فيكم ملائكة ، وإن كان بعض العلماء يرى في هذا الحديث أنه مختصر من حديث طويل ، وأن الواو فيه ضمير ، يعود على اسم ظاهر متقدم ، وليس علامة جمع ، وأن أصل الحديث : «إنلله ملائكةً يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار »(٣٦) .

وقد وردت هذه الظاهرة في بعض أحاديث الصحابة والتابعين ، كما في قول الحسن البصريّ ، يصف طالب العلم : « قد أوكدتاه يداه ، وأعمدتاه

(٣٤) تفسير القرطبي ١١/ ٢٦٨ ، وانظر : معاني القرآن للفراء ٣١٦/١ ، وشرح التصريح ١/ ٢٧٥ - ٢٧٧ .

(٣٥) انظر : مغني اللبيب ٣٦٥/٢ ، والقاموس المحيط (الواو) ٤١٣/٤ ، وبصائر ذوي التمييز ١٤٦/٥ .

(٣٦) أنظر : شرح الأشموني على الألفية ٤٨/٢ .

رجلاه » (٣٧) .

أما أبيات الشعر القديم ، التي وردت فيها هذه الظاهرة . فما أكثرها في دواوين الشعر العربي . ومن أمثلة ذلك قولُ عمرو بن مِلْقَط الطّائي ، وهو شاعر جاهليّ :

أُلْفِيَتَا عيناك عند القفا أولى فأولى لك ذا واقية (٣٨)

بدلاً من : الفيت عيناك . ومثله قول أميّة بن ابي الصَّلْت :

يلومونني في اشتراء النّخيـ ـل أهلي فكلُّهمُ يعذلُ (٣٩)

بدلاً من يلومني أهلي . وكذلك قول أبي عبدالرحمن العتبي :

رأين الغواني الشيبَ لاح بعارضي فأعرضن عنّي بالخدود النّواضرِ (٤٠)

أي : رأت الغواني . كما يقول الفرزدق :

ولكن ديافيٌّ أبوه وأمّه بحَوْرانَ يعصرن السّليطَ أقاربُهْ (٤١)

أي : يعصر أقاربه . ويقول عبيدُالله بن قيس الرُّقيّات :

تولّى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مبعدٌ وحميمُ (٤٢)

(٣٧) انظر : الفائق للزمخشري ٧٣/٣ . والنهاية لابن الأثير ٢٩٧/٣ ولسان العرب (عمد) ٢٩٦/٤ وانظر أحاديث أخرى في : إعراب الحديث للعكبري ٢٨ ؛ ٣٩ .

(٣٨) شرح شواهد المغني ١١٣ ، وأمالي ابن الشجري ١٣٢/١ ، وشرح ديوان أبي تمام ١٠/٣ .

(٣٩) ديوانه ص ١٦ ، والدرر اللوامع ١٤٢/١ ، وأمالي ابن الشجري ١٣٣/١ ، وشرح التصريح ٢٧٦/١ ، وهمع الهوامع ١٦٠/١ ، وإعراب الحديث للعكبري ٤٠ ، وفي شرح شواهد المغني ٢٦٥ : « عزاه السخاوي في المفصل إلى أحيحة بن الجلاح » .

(٤٠) العيني على هامش الخزانة ٤٧٣/٢ .

(٤١) ديوانه ص ٥٠ ، وكتاب سيبويه ٢٣٦/١ ، وأمالي ابن الشجري ١٣٣/١ ، وشرح ديوان أبي تمام ٢٢٤/١ ، وإعراب الحديث للعكبري ٢٩ ؛ ٤٠ ، وشرح ابن يعيش ٨٩/٣ ، وهمع الهوامع ١٦٠/١ .

(٤٢) ديوانه ق ١/٣٥ ص ١٩٦ ، وأمالي ابن الشجري ١٣١/١ ، وشرح التصريح ٢٧٧/١ ، وهمع الهوامع ١٦٠/١ .

أي : أسلمه مبعد وحميم . وكذلك يقول عُروة بن الوَرْد :

دعيني للغنى أسعى ، فإني رأيت النّاسِ شرُّهم الفقيرُ
وأبعدُهم وأهونهم عليهم وإن كانا له نَسَبٌ وخيرُ (٤٣) .

أي : كان له نسب وخير . ومثله قول مجنون ليلى :

ولو احدقوا بي الإنس والجنّ كلهم لكي يمنعوني أن أجيكِ لَجيتُ (٤٤)

أي : ولو أحدق الإنس والجن . ومثله قول الشاعر :

نصروك قومي فاعتززت بنصرهم ولو انهم خذلوك كنت ذليلا (٤٥)

أي : نصرك قومي . ومثله أيضاً قول الآخر :

نُسيا حاتمٌ وأوس لَدُنْ فا ضت عطاياك يا ابنَ عبدِ العزيزِ (٤٦)

أي : نُسِيَ حاتم وأوس .

وغير ذلك كثير في الشعر العربي القديم . وقد استمرت هذه الظاهرة في أشعار المولدين من الطائيين وغيرهم ، فها هو ذا أبو تمام الطائي يمتلئ ديوان شعره بالأبيات ، التي جاءت على هذه اللغة ، مثل قوله :

شجىً في الحشا تَرْدادُهُ ليس يفتُرُ به صُمْنَ آمالي وإني لمُفْطِرُ

وقد قال فيه أبو العلاء المعرّي في هذا الموضع (٤٧) : « يبين في كلام الطائي أنه كان يختار إظهار علامة الجمع في الفعل ، مثل قوله : صمن آمالي . ولو قال : صام آمالي ، لاستقام الوزن . وقد جاء بمثل ذلك في غير هذا الموضع » .

---

(٤٣) ديوانه ص ٩١ ، وشرح التصريح ٢٧٧/١ .
(٤٤) ديوانه ق ٤/٥٨ ص ٧٤ .
(٤٥) شواهد التوضيح لابن مالك ١٩٢ .
(٤٦) شواهد التوضيح ١٩٢ .
(٤٧) شرح الديوان للخطيب التبريزي ٢١٤/٢ .

ومن أمثلة ذلك في شعره أيضاً :

وغداً تبيّنُ كيف غِبُّ مدائحي ... إنْ مِلْنَ بي هممي إلى بغدادِ (٤٨)

ومنها كذلك قوله :

ولو كانت الأرزاق تَجْري على الحِجا ... هلكن إذنْ من جهلهنّ البهائمُ (٤٩)

وقد جاءت بعض أمثلة هذه الظاهرة في شعر المتنبي أيضاً ، فمن ذلك قوله :

ورمى ومارمتَا يداهُ فصابني ... سهمٌ يعذِّب والسهامُ تُريحُ (٥٠)

وقال كذلك :

نفديك من سيل إذا سُئل النّدى ... هَوْلٍ إذا اختلطا دمٌ ومسيحُ (٥١)

ويبدو ان هذه الظاهرة ، كانت شائعة في عصر الحريريّ (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) الذي عَدّها من اللحن (٥٢) وردّ عليه الشهاب الخفاجي ، فقال : « وليس الأمر كما ذكره ، فإن هذه لغةُ قوم من العرب ، يجعلون الألفَ والواو حرفي علامة للتثنية والجمع ، والاسم الظاهر فاعلاً . وتعرف بين النحاة بلغة أكلوني البراغيث؛ لأنه مثالُها الذي اشتهرت به ، وهي لغة طيّئ ، كما قاله الزمخشري . وقد وقع منها في الآيات والأحاديث وكلام الفصحاء ما لايُحصى » (٥٣) .

وقد بقيت هذه الظاهرة شائعةً — كما قلنا — في كثير من اللهجات العربية الحديثة . وهي امتداد للأصل السامي واللهجات العربية القديمة ، بلا شك ..

★ ★ ★

(٤٨) شرح الديوان ١٣١/٢ .

(٤٩) شرح الديوان ١٧٨/٣ ، وانظر أمثلة أخرى في ٢٢٤/١ ؛ ١٢٨/٢ ؛ ٢٨٨/٢ ؛ ١٠/٣ ؛ ٧٤/٣ وغيرها .

(٥٠) ديوانه ص ١٦٥ . وانظر كذلك : أمالي ابن الشجري ١٣٣/١ .

(٥١) ديوانه ص ١٦٩ . وانظر كذلك : أمالي ابن الشجري ١٣٣/١ .

(٥٢) انظر : درة الغواص في أوهام الخواص ٦٥ .

(٥٣) أنظر : شرح درة الغواص ، للشهاب الخفاجي ١٥٢ .

ومن الظواهر اللغوية الشائعة في اللهجات المعاصرة ، وهي امتداد للقديم كذلك : ظاهرة سقوط الهمزة في غير أول الكلمة كثيراً ، مثل قولنا في لهجات الخطاب : بير ، وياكل ، وراس ، ويملا ، ويقرا ، وريّس ، وخطيّة ، وروس ، وفوس ، وعباية ، وملاية ، ويودّي ، وجينا ، ومروّة ، ونحو ذلك ، بدلا من : بئر ، ويأكل ، ورأس ، ويملأ ، ويقرأ ، ورئيس وخطيئة ، ورؤوس ، وفئوس ، وعباءة ، وملاءة ، ويؤدي ، وجئنا ، ومروءة ، وغير ذلك في العربية الفصحى .

كما يقع الهمز من أوائل بعض كلمات العامية في حالات قليلة ، مثل : سنان، في : أسنان، وسبوع ، في: أسبوع ، وإيه اللي صابلك ؟ في: أصابلك ، وبراهيم ، وسماعين ، في : إبراهيم وإسماعيل ، ويوم الحدّ ، في : يوم الأحد ، وغير ذلك .

وليست هذه الظاهرة في اللهجات المعاصرة إلا امتداداً لما كان عند الحجازيين القدماء في نطقهم لهذه الكلمات وأمثالها .

وصوت الهمزة هو صوت أصيل في اللغات السامية كلها ، وهو صوت حنجري شديد مهموس ، ينطق بأن يلتقي الوتران الصوتيان ، أحدُهما بالآخر ، التقاء محكماً ، يَحْبِس خلفهما الهواءَ الخارج من الرئتين ، حتى إذا زال هذا الالتقاء فجأة ، سمعت للهواء المحبوس انفجاراً ، هو صوت الهمزة .

ويطلق على الهمز في اللغة العربية عند القدماء ، اسم « النَّبْر » . قال ابن السِّكّيت : « والنَّبْرُ مصدرٌ : نبرت الحرفَ نبراً ، إذا همزته » (٥٤) ، وإن كان الخوارزمي يخصّ النّبرة « بالهمزة التي تقع في أواخر الأفعال والأسماء ، نحو : سبأ . وقرأ وملأ » (٥٥) .

كما يقول ابن منظور : « والنّبْر : همز الحرف » (٥٦) .

(٥٤) اصلاح المنطق ١٦ .

(٥٥) مفاتيح العلوم ٣٠ .

(٥٦) لسان العرب ١٤/١ .

ولما كان هذا الصوت يتطلّب جهداً عَضَلياً ؛ فقد شبهّه علماء العربية بالتهوّع ؛ يقول سيبويه ، وهو يتحدث عن إبدال الهمزة واواً أو ياء : « واعلم أن الهمزة إنما فَعَلَ بها هذا (الإبدال) مَنْ لم يخفِّفْها ؛ لأنه بَعُدَ مخرجها ، ولأنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد ، وهي أبعد الحروف مخرجاً ، فثقل عليهم ذلك ، لأنه كالتهوع » (٥٧) .

كما يقول الرضيّ : « إعلم أن الهمزة لما كانت أدخل الحروف في الحلق ، ولها نبرة كريهة تجري مَجْرَى التهوّع ، ثقلت بذلك على لسان المتلفظ بها ، فخفّفها قوم ، وهم أكثر أهل الحجاز ، ولا سيما قريش ؛ روي عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله تعالى عنه ؛ « نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ماهمزنا » وحققها غيرهم ، والتحقيق هو الأصل كسائر الحروف ، والتخفيف استحسان » (٥٨) .

ويقول كذلك ابن يعيش : « إعلم أن الهمزة حرف شديد مستثقل ، يخرج من أقصى الحلق ؛ إذ كان أدخل الحروف في الحلق ، فاستُثقل النطقُ به ؛ إذ كان إخراجه كالتهوّع ؛ فلذلك الاستثقال ساغ فيها التخفيف ، وهو لغة قريش وأكثر أهل الحجاز ، وهو نوع استحسان لثقل الهمزة . والتحقيق لغة تميم وقيس (٥٩) .

ولهذا السبب ؛ لم يبق هذا الصوت على حاله ، في كثير من اللغات السامية ، منذ زمن قديم . ولم يكن العرب على سواء في معاملة هذا الصوت ، في العصر الجاهلي ، فلم يكن يَنْطِق به على صورته إلا القبائل النجدية ، ولا سيما تميمٌ

---

(٥٧) كتاب سيبويه ١٦٧/٢ .

(٥٨) شرح الشافية ٣١/٣ .

(٥٩) شرح ابن يعيش للمفصل ٩/ ١٠٧ . وانظر كذلك : شرح مراح الأرواح ٩٩ .

وقيس . ويسمى اللغويون العرب نطقهم هـــذا : بتحقيق الهمز ، كما رأينا في نصوصهم السابقة .

وقد تبنّت العربية الفصحى هذا التحقيق للهمز ، وسارت فيه على الأصل ، إلا في كلمات قليلة ، نراها في الفصحى غير مهموزة ، وحقّها الهمز . ومن أمثلة ذلك كلمة : « ناس » فإن الأصل فيها هو كلمة : « أناس » المستعملة في الفصحى كذلك . والدليل على أصالة الهمزة في هذه الكلمة وجودها في بعض اللغات السامية كالعبرية ، فهي فيها : أناشيم (anasim) وهو فيها جمع ، مفرده : إيش (is) بمعنى : « رجل » ، والياء فيه بدل من النون ؛ بدليل وجودها في الجمع ، كما أن هناك مفرداً نادر الاستعمال في العبرية ، يحتوي على هذه النون كذلك ، وهو : إنُوش « enos » ، ويقابل في العربية كلمة « إنس » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً : الفعل « يرى » ، فهو مضارع « رأى » المهموز العين . ومثل ذلك تماماً استعمال الفصحى لفعليَ الأمر : « خُذْ » و « كُلْ » بلا همز في الوصل والابتداء ، و « مُرْ » و « سَلْ » بلا همز كذلك في الابتداء فقط . وماضي هذه الأفعال الأربعة مهموز كما نعرف ، وهو : « أخذ » و « أكل » و « أمر » و « سأل » .

وإن كان الفرّاء لايستحب الهمز في الأمر ، من : « سال » في القرآن الكريم مطلقاً ؛ فيقول : « وقوله : « سَلْ بني إسرائيل » لاتُهمز في شيء من القرآن ؛ لأنها لو همزت ، كانت : اسأل ، بألف . وإنما تُرك همزها في الأمر خاصةً ؛ لأنها كثيرة الدَّوْر في الكلام ؛ فلذلك تُرِك همزُه ، كما قالوا : كُلْ وخُذْ ، فلم يهمزوا في الأمر ، وهمزوه في النهي وما سواه . وقد تهمزه العرب . فأما في القرآن ، فقد جاء بترك الهمز . وكان حمزة الزيّات يهمز الأمر ، إذا كانت فيه الفاء او الواو ، مثل قوله : « واسأل القريةَ التي

كنا فيها » ، ومثل قوله : « فاسْأَلِ الذين يَقرؤون الكتاب » ، ولست أشتهي ذلك ، لأنها لو كانت مهموزة اكتبت فيها الألف ، كما كتبوها في قوله : (فاضْرِبْ لهم طَريقاً) (واضرِبْ لهم مَثَلاً) بالألف » (٦٠) .

أما القبائل الحجازية (٦١) وعلى رأسها قبيلة قريش ، فانها كانت تسقط الهمزة من نطقها ، في غير أول الكلمة ، في غالب الأحيان (٦٢) . قال أبو زيد الأنصاري : « أهل الحجاز وهُذَيْل ، وأهل مكّة والمدينة ، لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر ، فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا . قال : وقال أبو عمر الهُذَلي قد توضّيت ، فلم يهمز ، وحوّل لها ياءً . وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز » (٦٣) .

وقال ابن منظور : « ولم تكن قريش تهمز في كلامها . ولما حجّ المهدي ، قَدَّم الكسائي يصلي بالمدينة ، فهمز ، فأنكر أهلُ المدينة عليه ، وقالوا : تنبر في مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالقرآن ؟ ! » (٦٤) .

كما قال الفرّاء : « وقوله : (تأكل مِنْسَأته) همزها عاصمٌ والأعمش ، ولم يهمزها أهل الحجاز ولا الحسن ، ولعلهم أرادوا لغة قريش ؛ فإنهم يتركون الهمز » (٦٥) .

---

(٦٠) معاني القرآن للفراء ١٢٤/١ .

(٦١) يبدو أن بعض القبائل الحجازية كانت تحقق الهمز كذلك ، فقد قال سيبويه (٨٠/٢) : « وقد بلغنا أن قوماً من أهل الحجاز من أهل التحقيق يحققون نبيء وبريئة ، وذلك قليل كما قال في موضع آخر (٢/ ١٦٩) : « واعلم أن الهمزة التي يحقق أمثالها أهل التحقيق من تميم وأهل الحجاز » .

(٦٢) يقول « برجشتراسر » في « التطور النحوي » ٢٩ : « أكثر الهمزات كانت لا تنطق في لهجة الحجاز ، إلا ماكان منها في أوائل الكلمات ، وبعض ماوقع منها بين حركتين »

(٦٣) أنظر : مقدمة لسان العرب لابن منظور ١٤/١ .

(٦٤) لسان العرب (نبر) ٤٠/٧ ، وانظر : غريب الحديث لابن قتيبة ٦٣٣/٢ .

(٦٥) معاني القرآن ٥٦/٢ .

وقال ابن عبدالبر في التمهيد : « قول من قال : نزل القرآن بلغة قريش ، معناه عندي : في الأغلب ، لان لغة غير قريش موجودة في جميع القرآن ، من تحقيق الهمزة ونحوها ، وقريش لا تهمز (٦٦) .

وقال صاحب كتاب المباني كذلك : « فأما الهمز ، فإن من العرب من يستعمله ، وهم تميم ومن يوافقها في ذلك ، ومنهم من يقل استعمالهم له ، وهم هُذَيْل وأهل الحجاز » (٦٧) .

وهذا كله معناه أن لهجة الحجازيين الاصلية ، تسهيل الهمز . أما قول عيسى بن عمر الثّقَفيّ – فيما تقدم : « فإذا اضطروا نبروا » ، فيمكن أن يكون معناه أن الحجازيين إذا اصطنعوا اللغة المشتركة ، أي اللغة العربية الفصحى ، حققوا الهمز ، كما يمكن أن يكون عيسى بن عمر قد قصد بذلك الهمزة التي توجد في أول الكلمة .

ولذلك يعدّ الجَواليقي (المتوفّى سنة ٥٣٩ هـ) سقوط الهمزة من أول الكلمة ، على ألسنة الناس في عصره ، من اللحن ؛ فقد روى لنا مثلاً أن الناس كانوا يسقطون همزة (أبو) في كلامهم ؛ فقال : « وهو أبو رياح ، لهذا الذي يلعب به الصبيان وتديره الريح ، ولا تقل : بُرْياح . وكذلك يقولون للقرد : بُوزنّه ، وإنما هو : أبو زنّة ، وهي كنيته (٦٨) .

ولا تزال هذه الظاهرة شائعة في تونس والجزائر مثلاً ، في قولهم : « بُومَدْيَن » و « بوتفْليقة » و « جميلة بُوْحرِيد » . وكان لنا زميل تونسي بجامعة ميونخ اسمه : « عثمان بُوغانمي » . كما تشيع هذه الظاهرة في بعض الأسماء في الجزيرة العربية ؛ مثل : « با حسين » و « با خشوين » و « با كلاّ » و « با بطين » .

---

(٦٦) انظر : البرهان للزركشي ١/ ٢٨٤ .

(٦٧) مقدمتان في علوم القرآن ٢٢٦ .

(٦٨) التكملة فيما يلحن فيه العامة للجواليقي ١٣١ .

وقد يؤدي سقوط الهمز من آخر الأفعال إلى التباسها بالأفعال المعتلة الآخر، فتعامل معاملتها عند إسنادها إلى الضمائر، فبعد أن ضاع الهمز من الأفعال: (ملأ الإناء، وسلأ السمن، وأخطأ في قراءته، وأبطأ في فعله، وخبّأ نقوده مثلاً) أصبح يقال عند اسنادها إلى الضمائر: (مليت، وسلبت، وأخطيت وأبطيت، وخبيّت) تماماً كما يقول الواحد منّا: (رَميت، وسعيت، وبنيت)، وغير ذلك.

وقد روى ابن الأنباري شيئاً من هذا في العربية القديمة؛ فقال: «ويقال: أردأت الرجل، وأرداته، وأرديته؛ فمن قال: أرداته، ليّن الهمزة. ومن قال: أرديته، انتقل عن الهمزة، وشبّه أرديت بأرضيت. ومثل هذا قول العرب: قرأت بتحقيق الهمز، وقرات بتليين الهمزة، وقريت بترك الهمز، والانتقال عنه إلى التشبيه بقضيت ورميت» (١).

★ ★ ★

واسنا نريد هنا الإكثار من الأمثلة، التي تدل على مذهبنا، في أن كثيراً من الظواهر اللهجية المعاصرة في العربية ليست إلا امتداداً لشيء من القديم. ويكفي أن نذكّر هنا بكشكشة ربيعة، التي تشيع في بلاد الخليج العربيّ، وبعض قرى مصر؛ وكسكسة هوازن، التي تشيع في كثير من بلاد نجد، وإبدال بني تميم الجيم ياءً، وامتداد ذلك في جنوبيّ العراق وبلدان الخليج العربيّ في مثل: مسيد، ودياي، وريّال، بدلاً من: مسجد، ودَجاج، ورَجُل.

وغير ذلك كثير كثير.. يحتاج بحثه واستقصاؤه إلى شيء من الصبر، وكثير من الجهد.. الصبر على قراءة المطوّلات من أمهات كتب العربية، والجهد في التقصيّ والتتبُّع والتفسير.. والله الموفق.